المصدر: العـــــربـــى
التاريخ : ١٩٩٧/٢/٧

بدأه السادات.. ويواصله الورثة

اللعب بالكلام

بقلم : عبد المنعم عبد القادر

تكشف اللغة المتداولة فى مستوييها الفصيح والعامى عن معقوليات العقل العام فى مظاهر الكلام: «الكلمة، والجملة، والعبارة»، وفى نشاطها وحركتها خلال التعامل اليومى بين الناس فى أى مجتمع، وحركة هذا النشاط تمثل فى - وجه من وجوهها - درجات الثبات والتغير فى دلالة الكلمات.. وكلما كانت دلالات الكلمات ثابتة ذلك الثبات النسبى كان هذا مظهرا لاستقرار المعقوليات فى العقل العام.. ولوحدة وعى الجماعة.. وللاستقرار النسبى فى المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية.. والعكس صحيح حيث نرى النشاط اللغوى للجماعة يعبر عن تغير معقوليات العقل العام فى فترات التحولات الاقتصادية والاجتماعية الحادة - بوجه خاص - الأمر الذى تعبر عنه اللغة المستخدمة فى التعامل بين مكونات الهيكل الحى للمجتمع كله.. وهى تعبيرات لفظية تتشكل دلالاتها فى وعاء العملية التاريخية للتحولات - المشار إليها - كاشفة عن المذاق الخاص للعصر.

ونختار - من بين عصور التحولات الاقتصادية الاجتماعية الحادة عصر الرئيس الراحل محمد أنور السادات فى محاولة منا لتبيين مذاق هذا العصر الذى تشكل فى رحم العملية التاريخية لتلك التحولات فكانت

اللغة المستخدمة منذ لحظته الأولى هى التعبير الحى عن هذا المذاق

الغرض عريض - كما نرى - لكن تكفينا بعض المحددات الشائعة فى الصحافة، ووسائل الإعلام الجماهيرية، ولغة الحديث اليومى. هذه المحددات ليست سوى مجموعة قليلة من التعبيرات اللغوية. وأول ما يطالعنا منها هو تعبير «ثورة التصحيح» كمحدد أساسى

لقد رأى السادات مكانة «جمال عبد الناصر» فى قلوب جماهير مصر خلال فترة عمله الطويلة فى هياكل مؤسسة الحكم. وهو وإن عاش يجارى الجو بحنكة مشهود له بها إلا أنه كان ينطوى على رؤيته الخاصة فى التحولات الاقتصادية الاجتماعية والثقافية انذاك. وقد كانت جنازة الزعيم أعظم استفتاء جسده الشعب المصرى - وما كان السادات بالذى تفوته دلالات هذا الاستفتاء وخطورة هذه الدلالات على رؤيته المستبطنة لاتجاهات التغير الاجتماعى والاقتصادى. وكان تخلصه من مؤسسة الحكم الناصرية خطوة فى طريق سياسى طويل ومعقد كانت على بوابة الدخول الفعلى إليه عبارة «ثورة التصحيح» ولنتوقف قليلا لدى هذه العبارة التى كانت تأسيسا لمعقولية جديدة فى العقل العام لم تكن موجودة بالفعل قبل أن يجسدها السادات.

«ثورة التصحيح!!» أولا لماذا «ثورة» وليست كلمة غيرها تؤدى معنى من معانى التغيير؟! و «تصحيح» ماذا؟ للإجابة عن هذه الأسئلة يجب أن نضع فى اعتبارنا سياق التصور الفعلى للواقع فى عصر السادات. فهذا السياق وما آل إليه التطور هو الذى يكشف لنا ما زعمناه عن تشكل دلالة الألفاظ فى رحم القصر

كانت كلمة «ثورة» تعنى التغيير الجذرى الاقتصادى الاجتماعى فى الأساس. وكان السادات يعلم أنه فعلا يقوم بثورة لكنه إن عرفها تعريفها الصحيح سيقول «ثورة مضادة» وما كان رجلا بهلولا. بل كان يعرف ما يفعله. لذا لجأ إلى كلمة التصحيح وهى ليست من ابتداعه فقد عرفت بلدان العالم الثالث ثورات تصحيح قبل ثورته. لكن الخبرة التاريخية لهذه الثورات لم تكن واردة بشكل كاف لدى جماهير المصريين وبعض الصفوة وكلمة التصحيح كلمة فضفاضة كثيرة الظلال والانحاءات تكاد أن تتعامل مع الخبرة الذاتية - لكل فرد من أفراد الشعب المصرى -

تلك الخبرة التى تكونت فى تفاعله مع ثورة يوليو ١٩٥٢ إن إيجابا أو سلبا أو فى الدرجات بينهما.. وتكاد الطاقة الدلالية الخاصة بكلمة «التصحيح» أن تكون العامل النسبى المتذبذب الذى شكل وعى كل فرد خارج مؤسسة الحكم انذاك.. كما شكل وجدانه الذى استقبل به التغيير الجديد.. فباستثناء كل ما كان فى مؤسسة الحكم يمكن أن نقول بأن جماهير الناس قد انتظرت تصحيحات كان كل واحد فيها يغنى على ليلاه.

كان السادات عميق الخوف من عبد الناصر حيا وميتا.. فهو القائل فى إحدى الدورات الافتتاحية لمجلس الأمة مخاطبا - فى خطبته - عبد الناصر: «ولولا أن محمدا خاتم الانبياء لقلت إنك نبى..»..! وهو الذى عاش حياته يعانى شوقا إلى تجسيد ذاته وتشكيل الواقع على صورتها؛ حتى إذا رأى جنازة الزعيم أيقن أنه لابد له من تفعيل أقصى طاقات دهائه لاحداث التحول المأمول فى مسار التاريخ المصرى المعاصر دون تعريض شخصه للأخطار.. فكان إعلانه آنذاك عن التزامه بما أطلق عليه «خط عبد الناصر».. كانت الأخطار المحيطة به هائلة وكان مكمن الخطر هو هذا الشعب.. شعب عبد الناصر.. لذا لزم التمويه اليومى عبر وسائل الاتصال الجماهيرية بهذا الالتزام بخط عبد الناصر حتى يستنيم شعب عبد الناصر فيتمكن هو من تفكيك النظام القديم الذى لعب فيه دائما دور «الكومبارس» ليبنى نظامه الجديد على صورة ذاته.. فلم يكن الالتزام بخط عبد الناصر إلا حديثا فارغا ليس لمؤدياته اللغوية مهما تعددت مدلولا فى السياق الحقيقى الفعال لحركة الواقع المبتغاة من جانبه.

وهذه الفترة الأولى من حكم السادات مزدحمة بحشد من الإنتاج اللغوى اليومى لم تشهد مصر لها مثيلا فى تسارعها.. وقد كانت تعبيرا عن الإجراءات السياسية الكثيرة والمفاجئة.. وكأن الكلام كان فى مرجل محكم قد انفجر فجأة.. فقد كانت إجراءات التفكيك المتصلة تفتح الباب لسعى تكوينات اجتماعية وسياسية إلى الاشتراك فى العملية السياسية مما اكسب عصر السادات حيوية موهومة.. وأوحى لقراء عصره بأفكار متناقضة عن شخصه وقدراته معا.. واغلب المتأملين لذلك العصر لا يستطيعون التخلص من سحر طاقات الحركة والمناورة والمفاجأة ذات الطوابع البرجماتية التى بشرت فى بدايتها بتفرد فى الأداء الساداتى حيث أن المغنى المشهور قد غنى له : «قول ياسادات.. ياللى كلامك حكم..!!».

لكن المنتج اللغوى لهذه الفترة يكشف لنا الحد الأقصى فى افتقاد السادات للحكمة المزعومة حين تلقف بفرح ظاهر ذلك اللقب الذى ميزه طوال فترة حكمة: «الرئيس المؤمن..» .. فقد تم صك هذا اللقب.. كما تم تصديره للوعى العام لتأسيس معقولية جديدة عن النظام دون تبصر سياسى أصيل يتعامل مع دلالات الألفاظ ومستويات هذه الدلالة والانتماء الجذرى للحقل الدلالى.. وخطورة نقل الألفاظ من حقولها الدلالية الأصيلة يفرض التلاعب السياسى التكتيكى المؤقت

فالمؤمن لفظة تنتمى إلى حقل دلالى بعينه ينتمى إلى المستوى الميتافيزيقى فى المعرفة.. وقد تم صك هذا الوصف للسادات تعاملا بالتضاد مع عبد الناصر بفرض التمايز أولا.. وكانت هذه أول ضربة إجرامية كبرى لشخص عبد الناصر تشكيكا فى إيمانه الدينى.. كما كان هذا الوصف تعريفا ضمنيا للخصوم التقليديين لنظام عبد الناصر فى الداخل «الاخوان المسلمين تحديدا»، وفى الخارج «بعض الأنظمة العربية والإسلامية» توطئة لعقد سياسى يقوم على أرض مشتركة هى تلك التى يوحى بها وصف المؤمن.. بالإضافة إلى المكاسب الفولكلورية الأخرى التى يجتنيها نظام يحكم أعرق شعوب العالم فى انجازه الحضارى الذى يتميز ببعده الدينى.

غير أن انتماء «المؤمن» إلى المستوى الميتافيزيقى فى المعرفة جعل الكلمة فى طاقاتها الدلالية الأصلية كلمة شديدة الخطورة فى الاستخدام السياسى التكتيكى.. لأنها ظلت محتفظة بمعياريتها الأصلية.. بل أخذت هذه المعيارية تكتسب قوة جديدة فى تقلب الكلمة فى جدلية العمليات السياسية بين القوى الاجتماعية السياسية فى ساحة العمل الوطنى.. والمعيارية تظل تتبلور فى سخونة هذه الجدليات حتى تصل إلى حالة استقطاب بين أطراف الجدل السياسى الاجتماعى.. وهذا ما حدث.. إذ أن الرئيس المؤمن بعد أن اصطنع الإخوان المسلمين والتيار الدينى عموما ظهيرا له ضد اليسار ناصريا كان أو غير ناصرى «فالكل كان ناصريا بالفعل مهما كان انتماؤه النظرى». وبعد أن كون السادات الفصائل المسلحة من شباب التيار الدينى ومن كثيرين غيرهم من الانتهازيين لتصفية شباب اليسار فى الجامعات وفى الشارع المصرى كانت دلالة «المؤمن» تتجسد فى تلك العمليات الدموية تدريجيا وكانت تنتمى بشكل متزايد إلى حقلها الدلالى الأصلى وإلى مستواها المعرفى مكتسبة تلك المعيارية فى

تبديات لغويه يمكن لمن يريد الاطلاع عليها الرجوع إلى صحف تلك المرحلة بوصفها مصدرا غنيا لهذه التبديات اللغوية التى كانت نتيجتها الأولية سحب «السادات» إلى معيارية دلالة كلمة المؤمن ومحاسبته طبقا لمقتضياتها مما افضى إلى النهاية الفاجعة للرئيس المؤمن على يد هؤلاء الذين رأوا أنهم المؤمنون الحقيقيون

لم يظهر قبول السادات لهذا اللقب طبيعته المغامرة فحسب بل كشف أيضا جهله بخطورة الكلمات.. وهو جهل يكشف مستويات أخرى لغياب المعرفة بحقائق مجالات أخرى غير مجال اللغة : ولعل من أطرف هذه المستويات ما جسدته عبارة له عن الحالة الاقتصادية لمصر فى أواخر عهده.. تلك الحالة التى يعرف الجميع أنها كانت تجسيدا للأنشطة الاقتصادية الطفيلية ولعمليات التشكيلات المتواطئة المتمفصلة مع نظامه.. فتفشى التضخم وأمراضه الفتاكة فى بنية الاقتصاد المصرى.. يقول السادات معلقا على ارتفاع الأسعار فى المجال العقارى - أنذاك - برضى وإعجاب حقيقيين:

«البلد بقى لها سعر...».

ليرحم الله الرئيس المؤمن الذى خلف لنا ذلك الحصاد اللغوى والدلالى الذى نسائله عن حقيقة العبقرية وعن صلتها بالكلمات والمعقوليات التى تمثلها الكلمات نفسها فى العقل العام واللامعقولية التى تمثلها فى الواقع الحى.

ونحن إذ نتأمل فى صبر كيف صار للبلد سعر فى سياقات التغير وما يمكن أن يؤول إليه فى الأطر الوطنية المصرية.. والعربية.. والعالمية.. يتخللنا مذاق عصر السادات الذى سيظل - ليس ثمرة اللعب بالكلام فحسب - إنما ثمرة لذلك الانفصال المرضى بين القول والفعل من جهة واللفظ ومدلوله من جهة أخرى.

وفى النهاية نسأل أنفسنا:

ترى.. ماذا صححت ثورة التصحيح..؟!!!.. وعلى أضواء الاستفتاء الشعبى الذى جرى بعرض فيلم (ناصر ٥٦)، هذا الاستفتاء الذى شاركت فيه أجيال لم تعش فى ظله، على أضواء هذا الاستفتاء نسأل أنفسنا السؤال نفسه: وهل استطاعت ثورة التصحيح - حقا - تصحيحا لما أرادت؟!! . لهذا حديث آخر..!!